

التنشئة على المواطنة

قراءة في الواقع والرؤى، لبنان نموذجاً

**The Upbringing of Citizenship
Reading in Reality and Vision, Lebanon as an Example**

د. سلمى عطالله¹ Dr. Salma Atallah

جامعة سيّدة اللّوزة - لبنان

abdallahsalma13@yahoo.com

تاريخ القبول: 2022/04/07

تاريخ الإرسال: 2021/02/14

¹ المؤلف المرسل.

الملخص:

وسط هذا العالم المعاصر حيث العولمة وتطور تقنيات التواصل وتنوعها، وانتشار الحروب والإرهاب، يصبح الكلام على المواطنة أمرًا ملحًا. والمواطنة تعرف بأنها علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي أو الدولة. هي التزام وانضباط حقوقيين في إطار القانون العام الذي يشمل جميع المواطنين المتساوين أمامه. وهي مرتبطة بمجموعة من القيم كالإخاء والتعاون وحب الوطن والحوار واحترام الاختلافات والوحدة الوطنية. وقد شهدت المجتمعات العربية، مع بداية الألفية الثالثة، تغيرات متسارعة في شتى مجالات الحياة. مما أدى إلى ظهور أنماط سلوكية جديدة، أبرزها التغيير الواضح في علاقة الأفراد بالدولة والمجتمع. ولا يمكن، في هذا الإطار، إقامة إصلاح من دون تحديث الذهنيات، واستحداث أنظمة في التنشئة، وتطويرها لتتلاءم مع الأحداث والمستجدات. وفي مجتمعنا اللبناني، مثلاً، حيث تغيب الوطنية، للأسف، وتحل محلها ولاءات كثيرة أخرى، منها للحزب أو الطائفة أو لقضية أو لدول خارجية. تبدو التربية على المواطنة حاجة تاريخية وسياسية أساسية، وبالتالي، وجودية. وهي تهدف إلى تنشئة المتعلم كمواطن مخلص صالح، وإلى تكوين شخصيته وترقية مداركه وسلوكياته ومهاراته في حياته الشخصية، كما في مشاركته في الشأن العام، إذ إنه مواطن متفاعل وإيجابي بعيداً من الأنانية والانعزال.

الكلمات المفتاحية: العولمة والحروب، المواطنة، الوطن، المواطن، التنشئة على المواطنة، القيم، الحقوق والواجبات، المؤسسة التربوية.

Abstract:

In the midst of this contemporary world where we witness globalization and the development and diversity of communication technologies, and the spread of wars and terrorism, talking about citizenship becomes an urgent matter. Citizenship is defined as a social relationship between a natural individual and a political community or the state. It is a legal obligation and discipline within the framework of the common law, which includes that all citizens are equal before it. It is linked to a set of values such as brotherhood, cooperation, patriotism, dialogue, respect for differences and national unity. With the beginning of the third millennium, Arab societies have witnessed rapid changes in all areas of life. Which led to the emergence of new behavioral patterns, most notably the clear change in the relationship of individuals to the state and society. Therefore, it's impossible to establish reform without modernizing mentalities, introducing

new upbringing systems and developing it to suit new events. In our Lebanese society, for example, where patriotism is unfortunately absent, it is replaced by many other loyalties, such as parties, sects, causes or foreign countries. Citizenship education appears to be a basic historical and political need, and therefore, an existential one. It aims to raise the learner as a loyal and righteous citizen, and to form his personality and upgrade his perceptions, behaviors and skills in his personal life, as well as in his participation in public affairs, as he is an interactive and positive citizen far from selfishness and isolation.

key words: Globalization and wars, citizenship, homeland, citizen, upbringing on citizenship, values, rights and duties, educational institution

01- مقدمة:

نعيش، اليوم، في زمن باتت فيه أمور الحياة غريبة ومعقدة، فاقدة للكثير من قيمها ... فالعولمة واتساع مجتمع الشبكات وتطور تقنيات التواصل وتنوعها وتعددتها، أدّى إلى تبلور إشكالات جديدة في مختلف مظاهر الحياة ومجالاتها وتحديداً في السياسة والتعليم والتربية... كذلك فإنّ انتشار الإرهاب وارتفاع درجات العنف والتعدي والحروب التي تهدّد وحدة الأوطان وكياناتها وثبات الأنظمة، جعل السّلام أحد التّحدّيات الكبرى في القرن الحادي والعشرين...

وسط كلّ هذه الأجواء، أصبح الكلام على المواطنة أمراً ملحاً. فكلّما تهدّد وجود الوطن ووحدته واستقراره برزت الحاجة إلى فكرة المواطنة. وبالتالي، وأمام هذا الواقع، لا يمكننا أن نقارب موضوع المواطنة من دون الانتباه إلى هذه الحقائق وإلى الزّمن الذي تنامي فيه، أي زمن العولمة، هذا العالم المتغيّر حيث تتحوّل دلالات المواطنة وتتبدّل، وأحياناً كثيرة تضمحلّ. وكلامنا على المواطنة لا يمكن أن نضعه إلّا في إطار مشروع في الإصلاح والتّغيير والتّطور الذي يتوخّى تأسيس الدّولة على أسس متينة... كما بناء شخصيّة المواطن بما يضمن نجاحها واستمرارها وفعاليتها... وهنا تبرز أهميّة مقاربة موضوع المواطنة، وتتجلّى أسباب اختياره... فما هي المواطنة وما هي أبرز القيم التي تدور في فلكها؟ ما الفرق بين الوطنيّة والمواطنة؟ ما علاقة المواطنة بالتّنشئة؟ وكيف تتجلّى مظاهر هذه التّنشئة؟ ما هو دور المؤسسات بعامة والتّربويّة بخاصّة في هذا الإطار؟ ما هي المعوقات التي تحول دون تنشئة فضلى؟ وما هي الرّؤى التي يمكن طرحها لمستقبل أفضل؟...

كلّها أسئلة سوف نجيب عنها في هذه القراءة، التي سنوزّع الكلام فيها إلى ثلاثة أقسام: يتناول القسم الأول تحديداً واضح الأطر لمفهوم المواطنة، وما يدور في فلكها من دلالات وقيم... فيما يعالج القسم الثاني أهميّة التّنشئة على المواطنة

ودورها في بناء المواطن الصالح... أما القسم الثالث فيركّز على دور المؤسسات بعامة، والتعليمية بخاصة في التنشئة على المواطنة...

02- مفهوم المواطنة:

إنّ المواطنة Civitas، في معناها اللغوي، مشتقة من وطن. وهو، بحسب معجم "لسان العرب" لابن منظور، "المنزل الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه... ووطن بالمكان وأوطن أقام، وأوطنه اتخذ وطناً... وهناك من نظر إلى الوطن على أنّه البلد الذي يقيم فيه الإنسان ويتخذ مستقراً له". لذلك، فهو شبيه بالمنزل وهو المكان الصغير الذي يسكن فيه مع أسرته، فيما الوطن هو المنزل الكبير الذي يضم عدداً كبيراً من الأفراد والأسر.¹ إنّ الالتصاق بالمكان والتعلّق بالذكريات والتطلّع إلى الآمال توجد شعوراً وطنياً عند المواطن، وتجعل الدفاع عن الوطن واجباً أخلاقياً وقانونياً.² يقول الشاعر العباسي "ابن الرومي" في معرض تعلّقه بالوطن:

ولي وطن آليت أن لا أبيعهُ
وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
فقد ألفته النفس حتّى كأنّه
لها جسد إن غاب غودرت هالكا

ومصطلح الوطن يتجاوز المعنى الضيق للمكان ليرتبط بإقليم الدولة، وليصير عنصراً من عناصرها الرئيسية. فيما الوطنية تشير إلى الشعور والالتزام الوطنيين بالمعنى القيمي أو النضالي أو الأخلاقي... وهي تتسع في معانيها ورموزها لتفتح الطريق تدريجاً نحو فكرة المواطنة التي مهما تعددت الاجتهادات حولها يبقى المواطن عمادها ومحورها. المواطن لا الفرد. المواطنون لا الرعايا.³ فالمواطن Civis، بحسب ما يرى الفيلسوف الهولندي "سبينوزا" (Baruch Spinoza) في رسالة في اللاهوت والسياسة، ينقذ، بناء على أوامر الحاكم، أفعالاً تحقّق المصلحة العليا، وتحقّق في الآن نفسه مصلحته الشخصية.

فما هي المواطنة؟

إنّ المواطنة، من منظور علم الاجتماع، تُعرّف بأنّها مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي أو ما يعرف بالدولة.⁴ ومن خلال هذه العلاقة، يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولّى الطرف الثاني مهمة الحماية. وتتحدّد هذه العلاقة بين الشخص والدولة من طريق القانون، كما رأى علماء العقد الاجتماعي "هوبز"

(Thomas Hobbes) و"جون لوك" (John Locke) و"جون جاك روسو" (Jean-Jacques Rousseau).⁵

أما الموسوعة العربية العالمية فعرفت المواطنة بأنها "تعبير قويم يعني حب الفرد وإخلاصه لوطنه الذي يشمل الانتماء إلى الأرض والناس والعادات والتقاليد والفخر بالتاريخ والتفاني في خدمة الوطن." وهذا المصطلح يوحى بالتوحد مع الأمة أو الوطن والانتماء إليهما. معنى ذلك أن صفة الوطنية أكثر عمقاً من صفة المواطنة، أو أنها أعلى درجات المواطنة. فالفرد يكتسب صفة المواطنة بمجرد انتسابه إلى الجماعة أو دولة معينة، لكنه لا يكتسب صفة الوطنية إلا بالعمل والفعل لصالح هذه الجماعة أو الدولة، وبهذا، تصبح المصلحة العامة لديه أهم من مصلحته الخاصة.⁶

على ذلك، ليست المواطنة مجرد شعور عاطفي وحسب. إنها، إلى ذلك، التزام وانضباط حقوقيين، في إطار القانون العام الذي يشمل جميع المواطنين المتساوين أمامه.⁷ وهي تعني الممارسة الكاملة للحقوق والواجبات المدنية والسياسية، ومن ضمنها المشاركة في القوانين والقواعد والنظم التي ترعى هذه الحقوق ومن دون أي تمييز... وهي، من هذا المنطلق، تعبّر عن الإنسان ككائن سياسي له دور فاعل في إدارة الشأن العام.⁸ والمواطنة مفهوم تاريخي شامل ومعقد، له أبعاد عديدة ومتنوعة، منها ما هو مادي وما هو قانوني، ومنها ما هو ثقافي، ومنها ما هو سلوكي. فالمواطنة ليست مفهوماً جامداً بل مصطلح سياسي حي ومتحرك في سيرورة تاريخية مستمرة.⁹ والمواطنة وضع موروث وملزم ومكتسب بالولادة وليست خياراً. ما يجعلها عنصراً مهماً من عناصر الهوية الفردية لكل عضو في هذا المجتمع. وهي تشارك في صنع القرار في الدفاع عن المصلحة العامة.

والمواطنة مرتبطة بمجموعة من القيم أيضاً. يُعرف بعضهم القيم بأنها المعتقدات التي يعتقد أصحابها بقيمتها ويلتزمون بمضامينها، وبأنها تحدد السلوك المقبول والمرفوض... فيما يُعرفها آخرون بأنها معيار اجتماعي ذو صيغة انفعالية قوية وعامة تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة ويمتصها الفرد من البيئة الاجتماعية الخارجية، ويقوم منها موازين يبرر بها أفعاله ويتخذها هادياً ومرشداً. كما تعرف بأنها مجموعة من التفضيلات الإنسانية الفطرية أو المكتسبة المبنية على أسس عقدية أو اجتماعية وثقافية أو أخلاقية تشكل لدى الفرد قناعة وإدراكاً بأهميتها بصورة تجعل منها إطاراً مرجعياً لديه تحدد تفاعله وسلوكه مع البيئة التي يعيش فيها.¹⁰

هناك متغيّرات عديدة تنبئ بإمكانية حصول متغيّرات في القيم، خصوصاً أنّنا في أزمنة يسود فيها تنميط قسريّ يدعو الجميع إلى التّكيّف معه والتّفكير فيه، ما أدّى إلى أزمة قيم تعدّ من السّمات الواضحة في العصر الحاضر، نتيجة لطغيان المادّة على ما حولها من قيم ومبادئ. فالتّقدّم الباهر الذي وصل إليه الإنسان لم يحقّق له التّوازن التّفسيّ الذي يبتغيه، بل إنّّه ساعد على اهتزاز القيم عنده. وبالتالي، فقد أصبحت الحاجة ماسّة إلى التّربية على القيم والمبادئ الأساسيّة، والمواطنة هي إحداها...

فقد جاء في التّقرير الصّادر عن المؤتمر الدّوليّ الخامس لتعليم الكبار والذي عُقد في مدينة "هامبورغ" (Hamburg) في ألمانيا عام 1997 أنّ مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين تتطلّب تدعيم العمليّات الدّيموقراطيّة وتعزيز حقوق الإنسان وحمايتها وتشجيع المواطنة النّشطة ودور المجتمع المدني...

والمجتمعات العربيّة شهدت، مع بداية الألفيّة الثّالثة، تغيّرات متسارعة في شتى مجالات الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة... الأمر الذي ترتّب عليه ظهور أنماط سلوكيّة جديدة في هذه المجتمعات، أبرزها التّغيير الواضح في علاقة الأفراد بالدّولة والمجتمعات التي ينتمون إليها. رافق ذلك ظهور أنماط تفكير وممارسات أثّرت سلبيّاً في تماسك المجتمع وتلاحمه. كما ساهمت العولمة، بتداعياتها الثّقافيّة والاقتصاديّة والإيديولوجيّة، في تنامي هذه الأفكار والسلوكيّات وانتشارها، والتي تكاد تقضي على المجتمعات العربيّة. ما يفرض بشكل أو بآخر العودة إلى التّربية على القيم وخصوصاً على المواطنة وبالحاح...

أمّا أبرز القيم التي تشكل المواطنة فنذكر منها:

1. تعميم ثقافة القيم الوطنيّة كالإخاء والتّسامح والتّعاون والتّضامن وحبّ الوطن والتّمسك بمقدّساته والرّغبة في خدمته والدّفاع عن أرضه، والاعتزاز بالانتماء الوطنيّ... واحترام رموز السيّادة والرموز الوطنيّة من علم ونشيد وطنيّ وقادة ومفكرين وطنيّين خدموا شعبهم ووطنهم بإخلاص... وبالتالي، تعزيز هذه القيم وتثبيتها في الدّات الإنسانيّة كي لا تكون عرضة للزّوال عند أيّ تحدّد أو استحقاق...

2. المشاركة في الحوار والاعتقاد على النّقد واحترام الاختلافات بين النّاس سواء أكان سببها الجنس أم العرق أم الثّقافة أم الدّين... والتّواصل مع الآخرين المشاركين في الوطن، واحترامهم وتنظيم العلاقة بهم، والابتعاد عن التّعصّب الذي يقوم على العدائيّة والكره والإلغاء للأفكار المخالفة، والذي قد يقود إلى التّنازع والحروب الأهليّة... بحيث إنّ المتعصّبين قد يتجهون إلى مزيد من الانكماش أو العزلة خشية الاندماج الوطنيّ، ويبالغون في

- الحديث عن خوف الفرد والأقلية المختلفة، متبنين أفكاراً نمطية ثابتة يصعب إقناعهم بما يخالفها. وفي هذا الإطار، لا بدّ من التمييز بين العصبية التي تحدّث عنها "ابن خلدون" والتي تعني شعور المرء بواجب الدفاع عن قومه، والتعصب الذي يُعتبر آفة اجتماعية ونفسية تؤدي إلى الإضرار بالشعور الإنساني والمجتمع البشري.¹¹
3. الإعداد على إدراك أهمية الالتزام المدني ومعرفة الحقوق والواجبات وفهمها، وبالتالي، تأديتها، والامتناع عن قبول "المعروف" بديلاً من المطالبة بـ "الحق"...
4. التزوّد بفهم إيجابي وواقعي للنظام السياسي في الوطن، أكان تشريعياً أم تنفيذياً أم قضائياً... وتعليم ضرورة المشاركة الفاعلة في الانتخابات وفي تدبير جوانب من الشأن العام، كما في الحياة السياسية، وإبداء الرأي في الأنظمة خصوصاً نظام الانتخابات واتخاذ القرارات في هذا المجال، ومن ضمنها محاسبة المسؤولين على أيّ انحراف أو تقصير أو فساد...
5. احترام دستور الدولة والقوانين والأنظمة وتقديرها والالتزام بها، وفهم الحاجة للخدمات الحكومية والاجتماعية، وتعلّم تأديتها بصلاح وأمانة، وممارسة السلوكات الإيجابية والسليمة نحو مؤسسات الدولة والعاملين فيها، فالمجتمع المجرد أو المتجرد من الدولة لا ينتج ديمقراطية ولا مواطنة ولا مجتمعاً مدنياً، بل ينتج "حرب الكلّ ضدّ الكلّ".¹²
6. العمل على تثبيت الوحدة الوطنية وعلى تحقيق السلام والالتزام بمبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد الشعب الواحد. وإدراك أنّ الحرية والمسؤولية متلازمان...
7. نبذ النظام الطائفي الذي، بحسب الخبير الاقتصادي والمالي اللبناني "جورج قرم"، يقف حاجزاً منيعاً بين المواطن والدولة. كما أنّه يولّد مجالاً خصباً للتعصب والانغلاق والتمييز والشفاعات، ويضعف العلاقة بين الفرد والمجتمع الوطني والدولة، فتمسي الدولة كياناً غريباً عنه، لا وصول له إليه إلاّ عن طريق المتنفذين. وهكذا ينتقص دور الدولة كحامية للمواطنين ومشرّعة للقوانين وضامنة لتنفيذها وقاضية بين الناس، فتبقى ضعيفة أمام الكيانات الاقتصادية والتربوية والطائفية والسياسية القائمة في البلاد.¹³
8. عدم الاهتمام بالشأن الخاص بعيداً من الشأن العام، وعدم التركيز على النجاح الشخصي فقط على الرغم من أهميته، لأنّ القضايا الوطنية، في هذه الحال، تصير في آخر اهتمامات الفرد المواطن، هذا إذا لم تنعدم كلياً.

9. تعزيز الاستقلالية الذاتية وإدراك الخصوصية الفردية أو الفريدة كمكون للاستقلالية الذاتية... فالإنسان لا يذوب في المجموعة، ولا يختصر بانتمائه إليها ولو كان عضوياً ينتمي إليها ويتضامن معها. وهكذا يحافظ على القدرة على الرجوع إلى النفس والتأمل والإبداع والتفكير والتساؤل والتقييم وابتكار الأجوبة والحلول خارج الأجوبة السائدة. فإدراك الفريدة ضمن الجماعة يسمح بتخطي الإملاءات والولاءات القويّة.¹⁴
10. وعي قضايا المجتمع بمختلف أنواعها، والتعاون والعمل من أجل معالجة المشكلات وتحمل المسؤوليات الاجتماعية ومواكبة متطلبات الحياة الحاضرة والمستقبلية...
11. التحلي بأداب الحياة الجماعية والاستعداد للتعاون مع الآخرين، وتعلم العمل الجماعي القائم على الشراكة الكاملة والمسؤولية الجماعية عن التطور والمصلحة الاجتماعية العامة والمشاركة والمساهمة في النماء...
12. الابتعاد عن حبّ الظهور والتفاني الاجتماعي والإنفاق غير المتوازن والسعي إلى الإثراء السريع من دون مراعاة خلقية الوسائل، "الشطارة"، ومن دون إقامة اعتبار للقوانين أو للمصلحة العامة.
13. الإيمان بالنظافة العامة وحماية البيئة الطبيعية وتنظيم حملات التشجير في مواجهة تدمير الغابات والتّمدد العمراني.
14. تعزيز القدرة على الإنتاج والتنمية والمبادرة المبدعة والتحلي بالروح العلمية والموضوعية...
15. العمل للقضاء على الأمية والتمسك باللغة الوطنية وتطويرها وإغنائها، وتعميم برامج ثقافية وفنية ذات أبعاد وطنية مرموقة...
16. تمكين الثقة بالهوية، واحترام الميراث الثقافي والعمل على قراءة نقدية له من أجل ثقافة تعلي من قيم العقل والإبداع... كما تشجيع الانفتاح على الإنسان والإنسانية، من دون إلغاء الذات أو الفريدة.
- وفي إطار الكلام على المواطنة وقيمها، لا بدّ من المرور على مفهومي الانتماء والولاء. فالانتماء مفهوم أضيق في معناه من الولاء، لأنّ الولاء في مفهومه الواسع يتضمّن الانتماء. والفرد لا يحبّ وطنه ويقدم له ويعمل على نصرته والتّضحية من أجله، إلّا إذا كان هناك ما يربطه به... وإنّ الولاء والانتماء قد يمتزجان معاً حتّى يصعب الفصل بينهما، فيكون الولاء، في هذه الحالة، هو صدق الانتماء، وكذلك الوطنية هي الجانب الفعليّ أو الحقيقي للمواطن.¹⁵ إلّا أنّ الولاء لا يولد مع الإنسان وإنّما يُكتسب اكتساباً... وما تجدر إليه الإشارة في هذا المجال، وجود عدّة ولاءات منها الشخصية والعائلية والطائفية والحزبية... ولئن كان من غير الواقعي وغير المطلوب أن تزول

هذه الولاءات كليًا فإنّه من الضروريّ الملحّ أن ينشأ معها ولاء وطنيّ مشترك يتجاوز الولاءات الفرعية ويكون ضمانًا لاستمرار الوطن وتقدمه.

03- التربية على المواطنة:

لا يمكن أن نقيم إصلاحًا سياسيًا ووطنياً وحتى اجتماعياً في مجتمعنا من دون تحديث الذهنيات... ولا يمكن تحديث الذهنيات من دون استحداث أنظمة في التنشئة والتكوين وتطويرها لتتلاءم مع الأحداث والمستجدات...

لقد عرّف الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركهيم" (Emile Durkheim) التنشئة أو التربية على النحو التالي: التنشئة عمل تمارسه الأجيال الراشدة على من لم ينضجوا ليفهموا الحياة المجتمعية. أما عالم الاجتماع "دنكن ميتشيل" (Duncan Mitchell) فعرف التنشئة بأنها "عملية تلقين الفرد قيم مجتمعه الذي يعيش فيه ومعايير ومفاهيمه، بحيث يصبح متدرّباً على إشغال مجموعة الأدوار التي تحدّد نمط سلوكه اليومي"¹⁶.

ومن أبرز القيم المجتمعية التي يمكن تنشئة الفرد عليها هي المواطنة. فهي مرتبطة بميدان التربية والتكوين والتنشئة المعرفية والاجتماعية، وثمة جانب تربويّ، توجيهي، طويل الأمد، ممتد ومتجدّد لاكتسابها أو لإغنائها... فهي ليست عملية مرحلية أو موسمية بل عملية صعبة ومتواصلة.¹⁷ والتربية المدنية مترابطة مع التربية الوطنية، لذلك جاءت التربية على المواطنة ملتصقة بالتنشئة المدنية في المناهج والبرامج التعليمية.¹⁸

وفي مجتمعنا اللبناني، حيث تغيب الوطنية، للأسف، وتحلّ محلّها ولاءات كثيرة أخرى، منها للحزب أو الطائفة أو لقضية أو لدول خارجية... تبدو التربية على المواطنة حاجة تاريخية وسياسية أساسية، وبالتالي، وجودية لأهلها ستشكل حتماً شرطاً لبقائنا الجسديّ والمعنويّ... هي خيار وطنيّ استراتيجيّ يندرج في صيرورة بناء المجتمع الديمقراطيّ الحديث...¹⁹ وهي من أنبل الواجبات وأعظم المسؤوليات!... فنحن، كلبانين، وفي لحظة من الزمن، قد لننا الاستقلال، لكننا لما بنى مكونات الوطن القوي والدولة المتينة، ولا مفهومًا محدّدًا، أكيدًا وواضحًا للمواطنة الحقيقية. وهذا ما جعلنا نعيش حالات من الغربة والاستلاب والتشردم جعلت منّا مجموعة من المجتمعات لا مجتمعًا واحدًا موحدًا... فالمواطنة تمثّل دورًا أساسيًا في تأصيل مجموعة من العلاقات الإنسانية القائمة على قيم مهمة وثابتة، مهما كان هناك اختلاف في الأرضيات الدينية والمنطلقات الفكرية أو المرجعيات الفلسفية لهذا المجتمع. وهذا ما أكّده إحدى الدراسات عام 2001 م، والتي سلّطت الضوء على أنّ المواطن الصالح هو الذي يحافظ على بلده ويطيع القوانين فيه.²⁰ وفي المناهج اللبنانية، هناك حضور لما يعرف بالتربية المدنية يتراوح

بين الخجول والضعيف، ويقدم بطريقة تقليدية تنفر معظم المتعلمين من هذه المادة، ولا يجني الفائدة المرجوة منها... فالتربية المدنية تعرف بأنها تلك التربية التي تهدف إلى تنشئة المتعلم المدرك لحقوقه، الملتزم بأداء واجباته وتنمية المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية والتزوع للعمل التطوعي والوعي بالنظم السياسية والقيم الديمقراطية لديه... إنها إكساب أفراد المجتمع بصورة عملية وفعالة مبادئ السلوك الاجتماعي المرغوب فيه ومهاراته، في البيت والمدرسة والشوارع والأماكن العامة والعمل... وكذلك مبادئ احترام الآخر وتقبل رأيه وإعانتته وتجنب ما يضره، وذلك بخلق ضمير اجتماعي لدى كل مواطن يستند إلى قيم التعاون والعدالة والديمقراطية وحب الوطن والغيرة عليه وتوظيف كل الطاقات لبنائه ورفعته ولأداء رسالته الحضارية كجزء من الحضارة الإنسانية والحفاظ على البيئة بكل مكوناتها.²¹

والتربية على المواطنة تهدف إلى تنشئة المتعلم كمواطن مخلص صالح، وإلى تكوين شخصيته وترقية مداركه وسلوكياته ومهاراته في حياته الشخصية، كما في مشاركته في الشأن العام، إذ إنه مواطن متفاعل وإيجابي بعيداً من الأنانية والانعزال.²² والمؤرخ اليوناني "هيراكليس" (Heraclitus) (535 - 475 ق. م.) يرى أن شخصية الإنسان قدره. فالشخصية مجموعة من القيم المختارة التي تُبنى عليها التصرفات الأخلاقية وردود الأفعال. وهي ليست مجموعة من الصفات الثابتة التي لا تتغير مثل بصمة الإصبع أو لون العينين، بل مجموعة من الصفات الديناميكية الفعالة، وتطويرها وبنائها مسؤولية كبرى، تبدأ منذ الطفولة حتى الموت.

ويفترض بالتربية على المواطنة أن تعمل على إزالة المعوقات التي تحول دون تطبيقها بالشكل المناسب. ومن أبرز هذه المعوقات ثلاثة. أولاً: الفقر الذي يجعل فكرة المواطنة ضعيفة أو معدومة، إذ تصبح أولوية الإنسان اليومية توفير طعامه وأساسيات عيشه. ثانياً: الفساد الذي، في ظلّه، يصعب القيام بأنشطة فاعلة تربوياً. فالرشوة والمحسوبية والزبائنية والتزوير والتشجيع على مخالفة القانون كما القمع السلطوي كلّها وغيرها الكثير هي من ظواهر الفساد السياسي والاجتماعي الذي يجعل المواطنة محفوفة بالمخاطر طالما لا تقوم على أبعاد ومضامين إنسانية. ثالثاً: العولمة بما تفرضه من تفكير ورؤى تجعل المتعلم متأثراً بهذه العولمة بعيداً عن وطنيته. ونحن هنا لا ندعو، طبعاً، إلى الانغلاق والتفوق، بل إلى العالمية التي تُعتبر انفتاحاً وتعاوناً بين الأمم والشعوب، من دون إلغاء الفردية والتميز... إذاً يُفترض بنا، وفي القرن الحادي والعشرين، أن ندعو إلى تربية تعيد التوازن بين ما هو محلي وما هو كوني للتخفيف من سيطرة قيم العولمة، وما يترتب عنها من انهيار للحدود بين الثقافات المحلية والعالمية.²³ وأن

تتخذ من الإنسان المواطن محوراً، ومن المبادئ والقيم الديمقراطية أسلوباً، مستهدفة بناء هذا المواطن بناء متكاملًا وواعيًا ومتوازنًا في جوانب شخصيته فكريًا وروحيًا واجتماعيًا وإنسانيًا...²⁴

04- الجهات المعنية بالتربية على المواطنة والأساليب المتبعة:

إن العملية التربوية هي مسار طويل تتمثل في تعزيز الثقافة الوطنية وتطويرها، كما السلوك الوطني، بعيدًا من التملق أو الانصياع بفعل الإماء السلطوي. والجهات المعنية بتحمل هذه المسؤولية، في لبنان، هي متعددة، منها الرسمية والخاصة.

وقد يتبادر إلى الذهن أنّ أولى هذه الجهات هي المؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد وجامعات لما لها من باع طويلة في العملية التربوية، ولأنّها تتعامل مع الأطفال والنشئة والشباب... إلّا أنّ التربية الوطنية لا تقتصر على هذه المؤسسات. فثمة أدوار مهمة لكل من العائلة والمحيط الاجتماعي للفرد المواطن والمحيط المهني... كما لوسائل الإعلام بعدما دخلت الفضائيات كل بيت. وبالتالي، تغدو عملية التربية على المواطنة عملية متشعبة إنّما متكاملة لكل جهة دور رئيس فيها...

فالأُسرة هي الوحدة الأساسية التي تقوم بتنشئة الطفل على الأدوار الثقافية وعلى نمط الشخصية البالغة السوية.²⁵ ويُفترض لكي يتحقق دور الأهل والعائلة في التربية على المواطنة أن تتوفر بيئة حاضنة تكون مثقفة، متمكنة مادّيًا ومعنويًا، وواعية لقيم المواطنة سالكة بحسبها... لكنّ بعض الأسر، إن لم نقل معظمها، وفي ظل الحياة السريعة والضّاغطة، لا تولي هذا الموضوع الأهمية المطلوبة، لأنّ أفرادها ليسوا مشبعين بالروح الوطنية اللازمة، أو لأنهم لا يعيرون هذا الموضوع الأهمية اللازمة... وهذا يعود طبعًا إلى ما نشأوا عليه من قيم في المدارس والجامعات والبيوت...

ووسائل الإعلام تخاطب كلّ الناس في بيوتهم وتؤثر في عواطفهم. فالقانون الناظم لهذه الوسائل يصوّب المسار العام في إطار الثوابت الوطنية وأهمّها حماية الوحدة الوطنية... وبقدر ما تساهم وسائل الإعلام في تعزيز المواطنة بقدر ما تساهم في تثبيت الاستقرار، وتعلي من شأنه في المجالات الوطنية كافة.²⁶ لكننا، للأسف، نشهد في وطننا كما في الكثير من الأوطان، وسائل إعلام غير واعية لا تُدخل المواطنة في حسابها، ولا توليها أي قيمة، بل تسعى إلى تحقيق السبق الإعلامي والحدث الذي يحدث بلبلة في المجتمع ويحقق أعلى نسبة مشاهدة، وإن كان هذا الأمر ثمنه تدمير المواطنة... وسائل إعلام مأجورة تنقذ أجندات غريبة، مشبوهة، خارجية وداخلية على حساب

الوطن والمواطنة... وسائل إعلام تسودها ثقافة الاستهلاك والتسطيح... فثقافة الإعلام هي ثقافة الحاضر التي تولّد كلّ يوم وتموت كلّ يوم.²⁷ وفي ظلّ هذه الثقافة الرائجة زالت الحاجة إلى الاهتمام بمعنى الأشياء وبالقيم المثالية من بينها المواطنة...

أما المؤسسات التعليمية التي تتنوع بين المدرسة والمعهد والجامعة فيفترض أن تلقى على عاتقها المسؤولية العظمى. فهذه المؤسسات هي نموذج مصغّر للمجتمع والوطن، وهي الكفيل الأبرز لخلق مجتمع صالح ووطن قويّ، لأنّ الجميع يعبر فيها، ويترقّى في ظلّها. وبالتالي، نستطيع أن نقول إنّ نواة الوطن الأولى تتأسّس في المؤسسات التعليمية، وخصوصاً منها المدرسة...

فالمدرسة تعتبر المؤسسة التعليمية الأولى التي أوجدها المجتمع لتحقيق أهدافه الوطنية. فعليها، بما تحتزن من معارف وخبرات تربوية، واجب أساسي في إطلاق ثقافة المواطنة في إطار: التعليم واكتساب المهارات. فالمكان الذي يتمّ فيه إعداد المثقّف، بحسب السياسي الإيطالي والمنظر للماركسيّة الجديدة "أنطونيو غرامشي" (Antonio Gramsci)، هو المدرسة.²⁸ من أجل ذلك، فإنّ مهمّتها هي رعاية قيم المواطنة وتبنيها وتعليمها بالتدرّج المطلوب في مناهج دراستها وفي مختلف أسلاكها، بما يتطلبه ذلك من تكوين يؤطّر معنى الإنسان، ويحترم قيم العدل والتاريخ وتطلّعات المجتمع... وبالتالي، إعداد المتعلّمين ليكونوا مواطنين صالحين فاعلين داخل وطنهم...

ولكي تتحقّق هذه المهمّة، على المدرسة أن تقيم مع المتعلّم علاقة تربوية تعطيه صورة إيجابية عن قدراته، وتؤمّن له الدّعم والمرجعيّة والتّوجيه، وتتعاطى معه ليس بوصفه كائنًا قاصرًا بل كائنًا ينمو، مع محاذرة تلقين المفاهيم والمعتقدات وحفظها، ليكون له دور فاعل في بناء معالم هذه المواطنة، فلا يخضع ويقبل ويستكين.²⁹ يقول الباحث والكاتب الفرنسي "فيليب ميريو" (Philippe Meirieu): "غاية العملية التّربويّة تكمن في أن يكون الذي يأتي إلى العالم مواكبًا من الذين سبقوه في أثناء تعرّفه هذا العالم، فيلججه مصحوبًا بالمعرفة والخبرات، وليس مقولبًا يقدّم له العالم". ... إنّ الأصل اللاتيني للكلمة "يربي" يتضمّن معنيين: معنى "غذّي" ومعنى "قاد نحو"، وقد يكون نحو أن يصبح المتعلّم نفسه.³⁰

ولكي تتحقّق مهمّة المدرسة على أكمل وجه، عليها أن تطبّق عمليّة التّنشئة في كلّ تفاصيل الحياة التي تجري فيها، ليتمكّن المتعلّم من استبطانها حقًا وفي العمق.³¹ عليها أن تكون مكانًا تمارس فيه الحقوق والواجبات، أي مكانًا يحترم المتعلّم وينظر إليه كصاحب حقوق وواجبات داخل المدرسة. وذلك من خلال:

- عرض شرعة المدرسة وقانونها الداخلي ومناقشتها مع المتعلّم...
- التّدريب على احترام حقوق الآخر، وهذا أمر يدخل في صميم ثقافة المواطنة. يقول الفيلسوف الفرنسيّ "ليفيناس" (Emmanuel Levinas) في هذا الإطار: "حقوق الإنسان هي حقوق الإنسان الآخر".
- تأمين أطر للنّقاش في المدرسة ليتعلّم المتعلّم ما يسمّيه الفيلسوف الفرنسيّ "بول ريكور" (Paul Ricoeur) "أخلاقيّة الحوار"، ويتعلّم من خلال الممارسة التّفاوض والإصغاء إلى الآخر والتّعاطي باحترام مع وجهات النّظر المختلفة، ويدرك، على نحو حسيّ، أنّ الحقيقة ليست مطلقة ولا أحد يملكها، وأنّها مركّبة، والأجوبة والحلول تبنى جماعيًّا. فيفهم معنى الاختلاف الحقيقيّ بحسب قول الكاتب الفرنسيّ "سانت إكزوبيري" (Antoine de Saint Exupéry): "إنّ اختلافنا عنك لا يؤذيك بل يغنيك".³²
- اعتماد مقاربات ديمقراطيّة كانتخاب ممثلي الصّفّ... مع التّشديد على أهميّة تحضير المتعلّم لهذه الممارسة ومواكبتها فلا تكون هذه الانتخابات عمليّة شكليّة هشّة تنتهي بمجرد الانتهاء من مراسيمها...
- الحثّ على أخذ المبادرات والقيام بمشاريع تصبّ في المصلحة العامّة. وهذا يُدخل المتعلّم في علاقة ناشطة مع العالم، بدءًا بالعالم الأضيّق، الوطن، فينتقل من تفسير العالم إلى تغييره... ويعلمه أيضًا، ومن دون وعظ، مفهوم الشّراكة في الحياة العامّة والتّعاطي مع الآخر.
- تنظيم آليات تسمح بمناقشة المشاكل المطروحة في المدرسة وإبداء اقتراحات مناسبة كمجالس الصّفّ... فيعتاد المتعلّم ابتكار أفكار وحلول لتحسين المكان الذي يعيش فيه.
- التّدرب على مقارنة الأمور السّياسيّة والوطنيّة بوعي وموضوعيّة وبطرق علميّة تؤهّل المتعلّم على فهم هذا الواقع وعلى تمييز مكامن الصّلاح والخلل فيه، كما على انتقاده وتصويبه وإيجاد حلول لمشاكله بعيدًا عن التّعصّب والانتماءات الضيّقة...
- كذلك، على المدرسة تحديد النّظرة إلى مهنة التّعليم، والسّموّ بشروط الانتساب إليها، وتعزيز التّنافس على هذا الانتساب، والارتقاء بخطط إعداد الكوادر التّعليميّة وتثقيفها وتعزيز الرّوح الوطنيّة عندها وتحفيزها على التّحلي

بالتماء الوظيفي... فنحن نعلم من خلال ما نكونه، وما نكونه أقوى مما نقوله.³³ كما عليها أن تهتم بطرائق التعليم والتقويم. فهذه الطرائق ليست وسيلة لإيصال المعلومات فحسب، إنما لتنمية العديد من القدرات والكفاءات... لذا، يفترض بهذه الطرائق أن تكون ناشطة تنشط الدماغ وتفعل عمله وتشجع على طرح الأسئلة وتعدّد الأجوبة، وتحثّ على البحث والقراءة والتحليل والنقد والربط بين المعلومات والمقابلة بين مصادرها وابتكار أجوبة غير الأجوبة الجاهزة... يفترض بها أن تعتمد العمل الفريقيّ وتشجّعه وتحثّ على الصراع المعرفيّ، فيدرك المتعلّم أن لا أحد يمتلك الحقيقة... وأن تعيد تأسيس المناهج المدرسيّة على رؤية علميّة شاملة، لا تركز على تعلّم المعارف والمعلومات فقط، بل تهتمّ ببناء الإنسان وتوجيه سلوكات المتعلّم نحو الأفضل والأصلح، خصوصاً من ناحية المواطنة. فطغيان المناهج التقليديّة الكاحجة لبناء القدرات والكفاءات المساعدة، المناهج المتوقعة في أطر ضيقة كالتّحضير للامتحانات الرسميّة على سبيل المثال، هو من أبرز عيوب هذه المؤسّسات. ويُفترض، بالتّالي، التّخلّص منه، وتحديد الرّؤى في هذا الإطار، لكي تكون المواطنة المنطلق والأساس والهدف...

ولأنّ العلاقة بالمعرفة تحتوي علاقة بالعالم، وتعدّ إليها، لا بدّ لعملية التّنشئة من أن تمتدّ خارج المدرسة. فقد قسم الفيلسوف اليونانيّ "أرسطو" (Aristotle) العلوم بين نظريّة وعملية وإنتاجيّة، معتبراً أنّ الأسلوب العلميّ الصّرف لا يفي بالمقتضيات العمليّة.³⁴ وهكذا، يمكننا أن نعتبر أنّ الكتاب مفيد لكنّه وحده غير كاف. إنّ تدريس مفاهيم: الدولة والقانون والنّظام العامّ ومقوّمات الاقتصاد الوطنيّ، وخصائص المجتمع الوطنيّ، ومعوّقات الاندماج والمجتمع المدنيّ والديموقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيّة... يساعد على تكوين ثقافة عامّة ضروريّة لكنّها غير كافية لتعميق الولاء الوطنيّ والشّعور بالانتماء إلى وطن. لا بدّ من إضافة الخبرات الواقعيّة أو الميدانيّة بوساطة العلاقات الاجتماعيّة بين المواطنين والمساعدة على معالجة مشكلاتهم المعيشيّة. كما أنّ مشاهدة الآثار الوطنيّة والتّمتّع بخيرات الوطن والاستمتاع ببيئته الطّبيعيّة والقيام بمشاريع بيئيّة على اتّساع مجاله الجغرافيّ من العوامل المكملّة للإطار المعرفيّ والثّقافيّ. بالإضافة إلى القيام بأعمال وخدمات اجتماعيّة وإداريّة يؤدّيها المتعلّمون في مؤسّسات القطاعين العامّ والخاصّ... كالعمل في الوزارات والبلديات والمصانع والشّركات والأسواق والمستشفيات والمستوصفات ودور الأيتام والمستنّين وذوي الحاجات الخاصّة... والمشاركة في المخيمات الصّيفيّة والكشفيّة وفي جني المحاصيل وتوضييبها والعناية بالحدائق والشّواطئ والشّوارع... وهذا ما يمكن أن نطلق عليه تسمية التّعلّم عبر الخدمة، ذلك عندما يدرس المتعلّمون مشكلة إداريّة أو اجتماعيّة أو صحيّة أو زراعيّة أو صناعيّة من خلال الخدمة التي يؤدّونها، ثمّ يشتركون في تحليلها ومناقشتها واقتراح سبل معالجتها... فالتّعلّم يتأثّر أكثر بما

يراه ويعيشه خارج إطار الصّفّ... ويُفترض اعتبار هذه النشاطات والخدمات شرطاً للتّخرّج في جميع برامج المدرسة والمعهد والجامعة...

باختصار، يجب ألاّ تسمح المدرسة بما يجعلها تقليديّة ومنغلقة ومقصيّة، بل أن تحيي أبعادها المتنوّعة كالبعد الوطني والاجتماعيّ والبعد العاطفيّ والبعد المعرفيّ والبعد العقلائيّ، وأن تتحلّى بما يجعلها مدرسة حقيقية مثاليّة ونموذجيّة وملهمة وسقفها عالٍ، ك:

1. التّخلّص من الجشع المادّي والتّطلّع إلى ما هو أسمى.
2. الانخراط في حياة المجتمع وقضايا الوطن والانغماس في الحياة والاتّصال بالواقع والبحث الدّائم عن بدائل أفضل له.
3. التّحوّل إلى ثقافة التّجريب والعمل على بناء شخصيّة المتعلّم كإنسان وكمواطن.
4. تعزيز الصّدق مع الذات والرّسالة، والتّمسك بوضوح الرّؤيا والإيمان بالمستقبل والأمل الدّائم.
5. التّحلّي بذاتيّة الدّافعيّة، فتشكّل بذاتها وزارة تربيّة وتعليم، وتكون نواة للتّغيير، فتحلّقه ولا تنتظره، وتعمل باستمرار على التّغيير في الأنماط السّائدة، وعلى التّعلّم والتّطوّر الدّائمين...
6. العمل على أن تكون مساحة للخير والوعي والتّعبير والبحث...
7. التّركيز على تعليم العلوم الإنسانيّة بما فيها اللّغات والفنون كأداة تواصل والتّربية المدنيّة والتّاريخ بأسلوب علميّ واضح وهادف...
8. تعزيز المهارات اللاّأكاديميّة والعمل على اكتساب المتعلّم لها، كتقنيّات التّفكير والتّحليل والإبداع والمناقشة والحوار والثّقافة والإطلاّع والتّعرّف إلى السّياسة وعيش مفاهيمها ونبد التّعصّب بمختلف وجوهه وأشكاله، وعيش المواطنة الصّالحة والتّمسك بالهويّة والقوميّة والتّمييز بين الخير والشرّ وعيش الصّلاح الأخلاقيّ وتطبيق النّظريّ في الحياة العمليّة والمجتمعيّة ومواكبة الحداثة والمتطلّبات العصريّة.

وفي إطار كلامنا على المدرسة ودورها، لا بدّ من الكلام على التّعليم الخاصّ وتزايد نفوذه، وخصوصاً في لبنان... إذ أنّ قسمًا كبيرًا من المدارس اللّبنانيّة، على سبيل المثال، يعود إلى هذا القطاع الذي يرنو، بمعظمه، إلى

العالمية مختزلاً للدول والحدود، والذي ترعاه مؤسسات تابعة للطوائف وأحياناً للأحزاب، وحتى الأشخاص... ما يجعلها، في معظم الأحيان، تسعى لاعتناق متعلميها المبادئ والمعتقدات والقيم التي تدين بها أو تصبو إليها هذه الأطراف... فكيف يمكن أن تقدم قضايا تستوعب قيم المواطنة التي يفترض أنها تساهم في توحيد المشاعر والقيم داخل المجتمع الواحد؟³⁵ الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن أهمية المواطنة وعن مكانتها والتنشئة عليها في مناهج هذه المدارس وسلوكاتها...

وفي انتقالنا للحديث على الجامعات، لا نجد أنفسنا نبتعد كثيراً عما قلناه عن المدارس باستثناء أن المدارس هي البادئة والمؤسسة، فيما الجامعات هي المكتملة والواضحة اللبنة الأخيرة في مشوار التنشئة على المواطنة، وخصوصاً من ناحية الحياة السياسية... إذ يفترض بهذه المؤسسة التعليمية أن تعمل على ترسيخ مفهوم المواطنة، ومن خلاله حب الوطن، وتعزيز المقاربات الصحيحة لعالم السياسة، وأن تدرب طلابها على التحلي بالمواصفات اللازمة التي تؤهلهم لهذه المقاربات كالتحلي بالأخلاق والموضوعية والعقلانية والانفتاح وقبول الآخر والرغبة في البحث والتقصي والقدرة على التمييز والاستقلالية وعدم التبعية أو التبعية العمياء... فالجامعة هي المكان الأمثل والأصلح للتشقيف ولتطوير المفاهيم الوطنية والممارسات السياسية عند الطلاب، بعيداً عن التأثيرات الخارجية أو الجانبية، وذلك بإقامة الندوات والحوارات وورش العمل والمؤتمرات... ولا بأس، في هذا الإطار، من أن يكون هناك مقرر إلزامي مخصص لهذه المهارات لا تنحصر طبيعته بالتطري بل بالتطبيقي، وذلك عبر مشاريع ونشاطات وخدمات متنوعة ومتعددة يقوم بها الطلاب داخل حرم الجامعة وخارجه...

06 - الخاتمة:

إن الإقرار بالتقصير يقود إلى مكاشفة الذات بأسباب الضعف. وقد آن الأوان لكي نفرّ بتقصيرنا في مجال التربية والتنشئة على المواطنة. ومن أبرز أسباب الضعف في وطننا العولمة والابتعاد عن القيم والمبادئ الأصيلة، كما عدم صوابية الأنظمة التربوية...

فالعولمة تنطوي على فرض نمط واحد على العالم في الإدارة والسياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة... ما يجعلها في موقع المكتسح لأبرز القيم الأصيلة ومن بينها المواطنة.

أما في ما يتعلق بالأنظمة التربوية فإن إنجاز أهداف التربية المواطنة يستدعي استراتيجية تربوية متعددة الجوانب تشمل مختلف جوانب الحياة المدرسية والجامعية، إذ يبقى دورها فريداً ومميزاً وأساسياً في بناء المواطنة، وهو يتوقف على مدى

الانسجام بين مقومات المواطنة وبين ما تمارسه هاتان المؤسستان من اتجاهات وسلوكات وقيم... وثمة حاجة ملحة لإصلاح التعليم المدرسي والجامعي كي لا يبقى قاصراً عن تلبية متطلبات التنشئة على المواطنة، وعن تزويد المتعلمين بالثقافة والكفايات اللازمة لممارسة المواطنة بأبعادها وعناصرها المختلفة، بل يعمل على تعزيزها وتثبيتها. ويُفترض، في هذا الإطار، ألا يبقى عبء التنشئة السياسية الوطنية على مادتين أساسيتين هما التربية المدنية والتاريخ، بل يتعداهما إلى مختلف المواد والمقررات، لا بل وجوه الحياة وتحديدًا خارج المؤسسة التعليمية. فالتعلم عملية مستمرة متجددة تقوم على التفاعل الداخلي والخارجي، وهو روح الحياة.

إنّ التربية الماضوية قد أعطتنا نموذج الإنسان المهزوم داخليًا بكلّ ما تخلقه الأخلاقيات الانهزامية من خوف وتكاليف ومراوغة وانتهازية وتخرّب من حمل المسؤولية وغيرها من السلوكات السلبية التي تكبت طاقات الفرد وتسلبه روح المبادرة وتلغي إرادته... أمّا النموذج الإنسانيّ المستقبليّ المطلوب فيجب أن يُعزّز عنده البعدان الإنسانيّ والفكريّ، فيتمّ التركيز على تعلّم اللغات والفنون، أو العلوم الإنسانية بعامة، واستغلالها لتعزيز المواطنة... كما على التربية على الشّمائل والقيم التالية: الصدق، التسامح، الكفاية، الجدّ، اتّباع النظام، الدّقة والإتقان، احترام الذات وتقديرها، الاعتماد على النفس، احترام العلاقة بالآخرين، الالتزام بالمواعيد، تحمّل المسؤولية، العقلانية، التفكير النقديّ وحلّ المشكلات، التحرّر من الاعتماد على التقاليد الجامدة ومن الولاءات الفئوية والجهوية ومن التفكير الخرافيّ ومن التعصب... الانفتاح على الثقافات والاستعداد للتغير وقبوله، التّيقّظ للفرص السّانحة في هذا العالم المتغيّر، الحيويّة في ابتكار المشاريع أو تحديثها... باختصار، يجب إعادة تأسيس التربية بما يوافق بينها وبين تحولات المستقبل الإنسانيّ، لكي نعبّر بمفهوم المواطنة إلى ما يجب أن تكون عليه، فننتقل من مجتمع الرّعايا إلى مجتمع المواطنين...

عندما طرح الأديب والنّاقّد "طه حسين" مشروعه التّربويّ الإصلاحيّ في كتابه الرّائد "مستقبل الثّقافة في مصر" عام 1937، لم يفته أن يُعرب عن خوفه من التّقصير - تقصير الأُمّة في أداء استحقاقات الارتقاء في معارج القوّة. قال "طه حسين": "وما أعرف أنّي أشفقت من شيء كما أشفقت من الاستقلال بعد أن كسبناه، ومن الحرّيّة بعد أن ظفرنا بها. أشفقت منهما لأنّي أخشى أن يعزّانا عن أنفسنا ويخيّلنا إلينا أنّنا قد وصلنا إلى آخر الطّريق، حين وصلنا إليهما مع أنّنا لم نزل على أنّنا ابتدأنا بهما الطّريق. وأشفقت منهما لأنّهما يحمّلاننا تبعات جسامًا حقًا أمام أنفسنا أولاً، وأمام العالم المتحضّر ثانيًا. وأنا أخاف أشدّ الخوف ألاّ نقدر هذه التّبعات أو ألاّ نقدّرها حقّ قدرها، أخاف أن نقصّر في ذات أنفسنا، فنهمل مرافقنا أو نأخذها في غير حزم ولا جدّ، فتأخّر ونحن خليقون بأن نتقدّم، وننحطّ ونحن خليقون أن نرقى. ويعود الاستقلال والحرّيّة علينا بالشّرّ، وهما خليقان ألاّ يعودا علينا إلّا بالخير كلّ الخير".³⁶

لكي لا نبقي مقصّرين متأخّرين عن ركب الحضارة التي نعيش فيها المواطنة بكلّ جوهرها وحقيقتها الأصيلة... ولكي لا تبقى المحاولات، في هذا الإطار، مجرد مبادرات فردية، إذ يكون جيّدًا عندما يركّب المرء أجنحة للآخرين ويطير معهم لا أن يطير وحده، لأنّه وحده، إذا أراد، فهو حتمًا سيطيّر... على كلّ الوزارات، وتحديدًا، على وزارتي الثقافة والتربية تبني الأهداف المذكورة أعلاه، ودعوة الجميع إلى مشاركتها فيها، وذلك من خلال وضع خطط مستدامة تطلّ مختلف جوانب الحياة، كما وضع مناهج مدرسيّة وجامعيّة واضحة ومتقدّمة، تكون المواطنة محورًا وهدفًا، ورعاية هذه المناهج ودعمها ومتابعتها والعمل الدائم على تطويرها...

أخيرًا، لا بدّ لنا من أن نسأل: هل يمكن للدولة أن تعي أهميّة دورها في إطار تمكين المواطنة وتثبيتها في نفوس مواطنيها وحياتهم، فتعمل جاهدة لأجل ذلك؟... هل يمكن لمدرسة أو جامعة بالمواصفات التي نصبو إليها أن تبصر التّور؟ هل يمكن إنقاذ الإنسان بإنقاذ المكان الذي يُنشئ هذا الإنسان؟ هذا ما نتمنّاه ويُفترض أن نسعى له جميعًا، كلّ من موقعه ومسؤوليّته...

7-0 الهوامش:

- ¹ - صباغ، علي. نحو عصر جديد في تربية المواطنة. مجلة جيل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، العدد 2، قسنطينة، الجزائر، 2014، ص 3.
- ² - السيّد حسين، عدنان. المواطنة أسسها وأبعادها. منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت، 2013، ص 17.
- ³ - السيّد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 10.
- ⁴ - صباغ، علي. المصدر نفسه، ص 4.
- ⁵ - العماري، الصّديق الصّادقي. التّربية على المواطنة وحقوق الإنسان: مشروع تكوين مواطن الغد. المغرب: مجلة علوم التّربية، عدد 59، إبريل 2014، ص 5.
- ⁶ - صباغ، علي. المصدر نفسه، ص 3-4.
- ⁷ - السيّد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 10.
- ⁸ - قضايا المواطنة في لبنان أبعاد وتحديات راهنة. مجموعة مؤلّفين. المركز اللبنانيّ للدراسات، ط1، بيروت، 2004، ص 41.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص 7-8.

- 10 - معتوق، جمال؛ بن جدّو، عبد الرحمن. دور مناهج التربية المدنية بمرحلة التعليم الابتدائي في التربية على المواطنة. مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 3، العدد 20، 2016، ص 4.
- 11 - السيد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 150.
- 12 - بشارة، عزمي. أن تكون عربيًا في أيامنا. مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2009، ص 25.
- 13 - قضايا المواطنة في لبنان، ص 100.
- 14 - المصدر نفسه، ص 87.
- 15 - صباغ، علي. المصدر نفسه، ص 4.
- 16 - غانم، عبدالله عبد الغني. التنشئة الاجتماعية ودور المؤسسات الاجتماعية في غرس وتنمية قيم الولاء والمواطنة الصالحة في الأيتام. المجلة العربية للدراسات الأمنية، المجلد 27، العدد 54، جامعة نايف العربية للدراسات الأمنية، السعودية، 2011، ص 6.
- 17 - السيد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 156.
- 18 - السيد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 152.
- 19 - العماري، الصديق الصادقي. المصدر نفسه، ص 5.
- 20 - معتوق، جمال؛ بن جدّو، عبد الرحمن. المصدر نفسه، ص 4.
- 21 - معتوق، جمال؛ بن جدّو، عبد الرحمن. المصدر نفسه، ص 6.
- 22 - السيد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 157.
- 23 - العماري، الصديق الصادقي. المصدر نفسه، ص 6.
- 24 - صباغ، علي. المصدر نفسه، ص 4.
- 25 - غانم، عبدالله عبد الغني. المصدر نفسه، ص 7.
- 26 - السيد حسين، عدنان. المصدر نفسه، ص 158.
- 27 - زيتوني، لطيف. الرواية والقيم. دار الفارابي، ط1، 2018، ص 69.
- 28 - زيتوني، لطيف. المصدر نفسه، ص 27.
- 29 - قضايا المواطنة في لبنان، ص 41.
- 30 - المصدر نفسه، ص 92.
- 31 - المصدر نفسه، ص 89.
- 32 - المصدر نفسه، ص 90 - 91.
- 33 - المصدر نفسه، ص 95.
- 34 - المصدر نفسه، ص 115.

-
- ³⁵ - عبد اللّطيف، كمال. المواطنة والتّربية على قيمها. مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، 2012، ص 30.
- ³⁶ - جواد رضا، محمّد. الإصلاح التّربويّ العربيّ: خارطة طريق. مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، 2006، ص 43.